مدخل إلى نظرية الأدب

مقدمة :

منذ نشأة الأدب تعددت مفاهيمه ونظرياته، سواء بالنظر إلى معناه أو إلى جانب الأدبية فيه، إذ ارتبط هذا التعدد بالتحولات الفكرية والفلسفية والاجتماعية، التي شهدتها الحياة عامة. وواجه في كل مرحلة من مراحله أسئلته الخاصة، متجاوبا مع مختلف التيارات والمذاهب، مما أثّر على حقول أدبية شتى منها تاريخ الأدب والنقد الأدبي في علاقتهما بتطور الأجناس الأدبية ونظرية الأدب. هذا التراكم المعرفي استدعى تنظيم الأفكار والحاجة إلى التصنيف والتنظير والتأسيس لما اصطلح عليه نظرية الأدب.

وإذا كان تاريخ الأدب والنقد الأدبي والأجناس الأدبية حقولا معروفة نسبيا، فما مفهوم نظرية الأدب؟

_ مفهوم نظرية الأدب:

لقد اختلفت مفاهيم نظرية الأدب بين مذهب أدبي وآخر، باختلاف المفاهيم والتصورات حول الأدب ذاته، ومن ثمّ فمن الصعب بلوغ تعريف دقيق لها؛ إذ أنها لا تسعى إلى تفسير طبيعة الأدب أو مناهج دراسته _ على الرغم من اندراجها ضمن محور دراستها _ بل هي " لفيف من الفكر والتأليف يصعب تعيين حدوده تماما"[1]. لذلك عرفها رينيه ويليك وأوستن وارين بأنها " دراسة أسس الأدب وأقسامه وموازينه وما أشبه"[2]، وبسبب التداخل الكبير بينها وبين النقد الأدبي وتاريخ الأدب أقاما جملة من الفروق بينها، مع التأكيد على حاجة نظرية الأدب إلى الحقلين الأدبيين السابقين (النقد الأدبي وتاريخ الأدب). من جهة أخرى عرّفها شكري عزيز الماضي بقوله:" هي مجموعة الآراء والأفكار القوية والمتسقة والعميقة والمترابطة، والمستندة إلى نظرية في المعرفة أو فلسفة محددة، والتي تهتم بالبحث في نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته، وهي تدرس الظاهرة الأدبية بعامة من هذه الزوايا، في سبيل استنباط وتأصيل مفاهيم عامة تبيّن حقيقة الأدب وآثاره"[3]. وكما نلاحظ فهذا المفهوم يندرج ضمن المفاهيم التي أنتجتها المناهج السياقية. لكن هل يستطيع هذا المفهوم الصمود أمام الرؤى الجديدة التي أفرزتها المناهج الحداثية وما بعد الحداثية؟

ستقودنا محاولة الإجابة عن هذا السؤال إلى استقصاء مفاهيم أخرى، منها ما ورد في ويكبيديا بأنها" الدراسة المنهجية لطبيعة الأدب وطرق تحليل الأدب"[4]. ومن هذا المنطلق فإنها تضم مختلف مناهج البحث التي تتعلق بمقاربة النصوص الأدبية. مع العلم أن هذه الأخيرة ذات صلات وثيقة بعلوم أخرى كالفلسفة وعلم النفس والاجتماع واللسانيات.

ويعود الفضل في بزوغ مصطلح نظرية الأدب theory literary بهذا المفهوم إلى الاتجاهات الشكلية والبنيوية وما بعدها، والتي رفضت المذاهب الرمزية والصوفية "وبروح علمية وتطبيقية

حولوا الانتباه إلى الواقع المادي للنص الأدبي ذاته"[5]؛ ذلك أنّ الأدب في جوهره يختلف عن كثير من المعارف، كالدين وعلم النفس والاجتماع، وإنما هو " نظام خاص للغة، له قوانينه وبناه وأدواته الخاصة، تلك التي كانت تدرس لذاتها أكثر من أن تختصر إلى شيء آخر"[6]. وقد كان لهذه المفاهيم الجديدة الأثر البارز في ظهور نظرية الأدب، في محاولة لعزل الظاهرة الأدبية عن السياقات الخارجية التي أفرزتها، والسعي إلى علمنة النص الأدبي، انطلاقا من خاصية الوقع الغريب الذي يميزه بخروجه عن المألوف، وهو ما يعرف في الدراسات اللاحقة بالانزياح عن المعيار أو الانحراف، وسيقود ذلك إلى مفاهيم جديدة أهمها نظرية الشعرية. ومن ثمّ برزت أسئلة جوهرية تتعلق بماهية الأدب ووظيفته وطرق البحث فيه. ولكي نكون منصفين فعلينا الاعتراف بأنّ هذه الأسئلة راودت كثيرا من النقاد والفلاسفة من قبل دون أن يكونوا شكلانيين أو بنيويين، على غرار كتاب " فن الشعر" لأرسطو و "ما الأدب؟" لسارتر، غير أنّ الشكلانيين والبنيويين ومن جاء بعدهم حققوا نقلة نوعية، في ميدان الدراسة الأدبية بتركيزهم على المعطى اللفظي، ومحاولة إخضاعه للدراسة العلمية وفق رؤية منهجية تسعى نحو تحقيق الموضوعية، مستبعدين كل ما هو خارجي من سياق وإيديولوجيا وعلاقة الأديب بنصه (ظهور فكرة موت المؤلف) مستفيدين من النتائج التي حققتها اللسانيات بمنهجها الصارم في دراسة اللغة.

ومع التطورات التي حققتها المناهج النقدية، على غرار التفكيكية والتأويل والنقد الثقافي ونظرية القراءة، فإنّ نظرية الأدب وضعت نصب اهتمامها كل المنجزات المحققة في الميادين المشار إليها دون أن تفقد معناها؛ حيث سعت إلى بلورة جهاز معرفي ورؤية منهجية توضح مفهوم الأدب وطبيعته ووظيفته، مع إعادة طرح الأسئلة التي انبثقت عن كل هذه العناصر، جاهدة للتأسيس لمفاهيم عامة تبين حقيقة الظاهرة الأدبية، وأهم سماتها وآثارها وعلاقتها بالقراء. ومن ثمّ فإن نظرية الأدب _ مثلها مثل النقد الأدبي وتاريخ الأدب مع مراعاة جوانب التداخل _ تعنى بالنص الأدبي في علاقته بطرفي العملية الإبداعية ؛ أي المؤلف والمتلقي.

وخلاصة القول فإن نظرية الأدب تسعى لدراسة الأدب دراسة منهجية من خلال وظيفته ومفهومه وأدواته، معتمدة على منجزات النقد الأدبي وتاريخ الأدب ونظرية الأجناس الأدبية واللسانيات. بغرض الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها كل عصر. لذلك فهي لا تعرف الثبات بل تساير التحولات الفكرية والفلسفية والأدبية والمنهجية، مستهدفة أقطاب الأدب الثلاثة: النص والمؤلف والقاريء. ومن ثم فقد عدّها رينيه ويليك وأوستن وارين" منظومة من المباديء والقيم المستمدة من نقد الأعمال الأدبية المحددة، والتي تستعين بالتريخ الأدبي بصورة مستديمة ومنتظمة"[7]، منوهين إلى تخطيها الحدود الزمنية والجغرافية من أجل إزالة الحواجز اللغوية التي تفصل بين الآداب القومية " والفوارق في استخدامات اللغة التي تنشأ من تطورها التاريخي"[8] من أجل الوصول إلى العناصر المشتركة بين مختلف الآداب العالمية في مراحلها المتتالية.